سوريا

في الرحلات الاسلامية[1]

لنقولا زيادة

كانت الرحلة عنصراً قويّاً في حياة المجتمع الاسلامي في عصوره الزاهرة . فقد رحل الناس لزيارة مهبط الوحي ، ولقوا في سبيل ذلك الكثير من صعاب السفر التي تحملوها راضين مسرورين . ورحل الناس في طلب العلم من قطر الى آخر . فقد كان العلم منتشراً مراكزه في انحاء العالم الاسلامي ، وطلابه كانوا يتحملون من المشاق في سبيل حصول عليه ما يحملنا على احترامهم واجلالهم . ورحل التجار في سبيل الاتجار . فقد كانت الاسواق الاسلامية في مشارق الارض ومغاربها مرتبطة بعضها ببعض كل الارتباط ، وكان التجار يحملون متاجرهم وسلعهم الى حيث يرجون الربح الوفير . أضف الى كل ذلك رحلة المترددين بين الملوك والامراء ، والمتنافسين الواجدين في الرحيل لذة خاصة ، والساعين في سبيل الرزق اذا ضاقت بهم ارضهم ، وجوّ ابي الآفاق . كل هذه نماذج من الرحلة عرفها العرب والمسلمون . وقد شجعهم على الاستزادة منها خضوعُ العالم الاسلامي برقعته الواسعة لدولة واحدة بادىء الامر . فلما ذهبت الوحدة السياسية بقيت وحدة الدين ووحدة اللغة . وهاتان رابطتا الحجاج وطلاب العلم ورسل السلاطين وحملة البضائع وزعماء الصنائع ، فاحتفظوا بالصلة . بل لعلّ الرحلة كانت أقوى في عهد التفرق السياسي منها قبلاً لاعتياد العالم الاسلامي درجةً من المعيشة ، ونوعاً من الحياة ، ولوناً من التفكير ، تحتّم على افراده معهُ الاتصالُ والاتجارُ والتبادلُ الفكري والادبي

وقد دوّن كثير من رحالي المسلمين اخبار اسفارهم وتنقلهم . فذكروا المدن التي هبطوها ، والمسافات التي اجتازوها ، والصعوبات التي تغلبوا عليها ، ووصفوا البلاد وزروعها ، وقيدوا مشاهداتهم على صناعتها وتجارتها ، وأتوا على وصف حياة السكان فعرضوا للطيب من عاداتهم بالمديح ، وعابوا ما فيهم من ضعف ، كالذي انتقده ابن جبير من عادة اهل دمشق في تحيتهم وصفة سلامهم ، فقال عنهم « وهذه الحالة من الانكفاف

(١) حديث أذيع من محطة الشرق الادنى للاذاعة العربية

الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء . . . . فيا عجباً لهؤلاء الرجال كيف تحلوا بسمات وبات الجمال »

وهذه الالتفات التي نعثر عليها في مذكرات السائح هي التي تميزه من الكاتب الجغرافي. فهذا يسأل ويستقصي ويحقق ويحاول ان يشمل كل جزء من المنطقة التي يعرض لدرسها . اما الرحالة فينقل ما يشاهد ، وتكون صورته جزئية ، ولكنها ثمينة في هذه الناحية. فبينا المقدسي أو ابو الفدا يذكران كل شيء عن اقليم الشام ، تجد ان ابن جبير ، وهو سائح ، لا يتناول مدن الغور أبداً لأنه لم يصل اليها ، وان بطوطة يذكر جنوب سوريا وخاناته وأماكن النكس والتفتيش لأنه جاء البلاد براً من مصر .

وقد حفظ لنا التاريخ عشرات من مذكرات الرحالين المسلمين ، أكثرها باللغة العربية ، وبعضها بالفارسية أو التركية . لكن التي أريد أن أعرض لها الآن هي الرحلات التي كتبت بين أواسط القرن الخامس للهجرة وأواسط القرن التاسع . وهذه يربي عددها على العشرين ، وهي تحوي أسماء البيروني صاحب الآثار الباقية الذي تناول الهند ، وابن بطلان الذي وصف الطاكية وما اليها في رسالة الى صديق له ونقل عنه ياقوت كثيراً من المعلومات عن تلك الجهات ، وناصري الفرناطي والسائح المروزي وعبد اللطيف البغدادي والعبدري والبلوي وشبك . فالعبدري المغربي رحل للحج في أواخر القرن السابع (٦٨٨هـ ، ١٢٨٩ م) فسار في ساحل شمال افريقيا الى الاسكندرية ثم ارتحل براً الى مكة . ووصف المصاعب التي لقيها في الاسكندرية على أيدي مغلقي المكوس في الميناء ، حتى انه لعنهم . والبلوي اندلسي من أهل القرن الثامن جاء للحج فمرّ بتونس والاسكندرية والقاهرة وقضى بعض الوقت في القدس . والرحالون الذين يعنينا أمرهم هنا ، من حيث علاقتهم بسوريا على وجه خاص هم أربعة : ناصري خسرو وابن جبير والهروي وابن بطوطة

وناصري خسرو فارسي الأصل ولد بالقرب من بلخ (٣٩٤هـ ، ١٠٣٣ م) ونال حظاً وافراً من الثقافة والعلوم وزار الهند وعمل في البلاط الغزنويين . ثم عاد الى فارس وشغل منصباً كبيراً عند السلاجقة . وكان منغمساً في الملاهي والملذات حتى تراءى له ذات ليلة رجل في الحلم نهاه عن المعاصي . وأخبره ان زيارة البيت الحرام هي سبيل التوبة النصوح . فكان لهذا الحلم أثر بالغ في تغيير حياته . فأقلع عما كان فيه حالاً وسار للحج في العام التالي . فمرّ بطريقه في سوريا وقضى فيها أربعة أشهر في السنة (٤٣٨ هـ ، ١٠٤٧ م)

أما ابن جبير فهو أندلسي من أهل القرن السادس للهجرة وكان من أعلم أهل زمانه بالفقه والحديث وشاركه في الآداب ، بشهادة لسان الدين بن الخطيب . رحل ثلاث مرات وحج ،

وزار سوريا في زمن صلاح الدين، ثم استقر بالاسكندرية فحدّث الى أن توفي . وقد وصف في آخر حياته بالفقيه الزاهد المنقطع الى الله

والسائح الهروي عاصر ابن جبير وهو هروي الأصل لكنهُ ولد في الموصل ثم نزل حلب وطاف البلاد وأكثر الزيارات . ولعلهُ لم يترك مكاناً فيهِ مقام أو قبر أو مسجد لم يزره . وقد كتب رحلتهُ « الاشارات في معرفة الزيارات » من الذاكرة لان معظم كتبهِ وقع في أيدي الصليبيين . وقد وصف الهروي نفسه بقوله . وانا مما لا أشك في قولة ولا أطعن في حديث الا اني ذكرت ما شاع خبره وذاع ذكره بطريق الاستفاضة . ورحلة السائح الهروي لم تطبع بعد

ورابع رحالتنا هو ابن بطوطة . وهو طنجي المولد من اهل القرن الثامن للهجرة . خرج من بلده حاجّاً ثم بدأ الرحلة . فزار الشام والعراق وفارس واسيا الصغرى وجنوب روسيا وافغانستان ودهلي حيث عمل قاضياً ثم زار الصين والهند وسيلان والسودان وتوفي في مراكش

هؤلاء الرحالون يرسمون لنا صوراً نفيسة من حياة سوريا . فناصري خسرو زارها كما رأينا قبيل الحروب الصليبية ، وابن جبير جاءها أيام صلاح الدين، وابن بطوطة وصفها أيام المماليك . وناصري خسرو وابن جبير ، بحكم الثقافة العالية التي حصلا عليها ، ودقة الملاحظة فيهما، وصفا وصفاً دقيقاً كثيراً من الامور التي شاهداها . فوصف ناصري للحرم الشريف بالقدس من أدق ما وصل الينا ، ولعله اول من ضبط ابعاد الاقصى وقياساته . ويلاحظ هذا السائح ابواب المدن واتجاهها ، وميناء عكاء وصناعات صور وصيداء ويعنى بمصادر المياه في كل بلد وتستوقف نظره كثرة الرخام في الرملة ، ولعل من أدق ملاحظاته ما ذكره من ان قرى القدس تقوم على رؤوس الجبال او سفوحها . ثم هو لا يغفل زهر النرجس الذي يكسو بقعة من الارض الى الغرب من حماة ، او الوردتين الجبليتين اللتين رآهما في جبيل بيد صيدا في شهر شباط (فبراير)، والاشجار التي تكسو الطرق حول كفر سابا في فلسطين . والمدن الداخلية التي نالها حظ الوصف في رحلته هي حلب وحماه وطبريا وبيت المقدس

أما باقي ما كتبهُ فهو عن مدن الساحل . فهو يذكر ان حلب تتمتع بيسار ورخاء اذ تلتقي عندها طرق التجارة الشامية والرومية والعراقية والمصرية ، ويحدثنا عن أبي العلاء عند مروره بالمعرة ، فقد كان لا يزال حيّاً . ويصف طرابلس بقوله « أرباض المدينة مملوءة بساتين وقصب السكر ينمو هنا بكثرة ... ومثله البرتقال والليمون والتمر ... وقد كانوا أيام وصولنا يستخرجون عصير قصب السكر . . . . . وفنادق المدينة تتألف من اربع طبقات او خمس وقد تصل الى ست ... وبيوتها واسواقها حسنة البناء نظيفة . وفي المدينة مكاتب

لفرض الضريبة الجمركية على السفن القادمة الى المدينة من بلاد الروم او المغرب او غيرها ... والسلطان — أمير المدينة — سفن تحمل تجارته الى بزنطية وصقلية والغرب — وأهل طرابلس كلهم شيعة . ولما وصل ناصري خسرو صيدا بهره ثراؤها وزينتها فقال « أسواق المدينة بهية الزينة حتى ظننت انها زينت لمناسبة قدوم السلطان او لأمر آخر سارّ . فلما استقصيتُ عرفت ان ذلك أمر عادي » . وقد كانت صور في الوقت الذي زارها فيه ناصري خسرو ، من أكبر مراكز التجارة البحرية . يدلنا على ذلك وصفه لفنادقها بأنها ذات خمس طبقات أو ست ، ولشوارعها بأنها نظيفة « تدل على الثروة الهائلة » . وصور معروفة « بفنائها وقوتها بين المدن السورية الساحلية . وأكثر سكانها شيعة لكن قاضيها سنّي ... » ويتنقل في مدن الساحل من المدينة الى الاخرى حتى يمر بقيسارية ثم يتجه الى الرملة . وبعد أن يصف هذه المدينة الكبيرة وبيوتها المبنية بالرخام وهو كثير فيها يذكر طريقة تقطيعه أعمدة أو ألواحا بمنشار غير مسنن . وفي القدس يعنى ناصري خسرو بزيارة الأماكن المقدسة جميعاً ويلاحظ ان شوارع المدينة مبلطة ويعطينا عدد السكان على انهُ عشرون ألفاً . ثم يقول « والارض في نواحي القدس مستغلةٌ استغلالاً طيباً . والزيتون هناك كثير ويبلغ الدخل السنوي لبعض كبار المثرين هناك نحواً من خمسين ألف مَنّ (يقابل ٤٢٠٠ تنكة) » ويقول ناصري خسرو ان القار المجموع من مياه البحر الميت يستعمل في ملاء الاجزاء السفلى من الاشجار لحفظها من الديدان ، ويستعمله الصيادلة للمحافظة على العقاقير من الحشرات

وابن جبير دقيق في ملاحظاته ، شديدُ العناية بالناحية الاجتماعية . فهو يصف عادات أهل دمشق في الجنائز والنعيش ، بوجوههم حيث يرى انهم مقصورون . كما يصف عرساً في صور ، وكان للنصارى ، ويذكر ان المسلمين اشتركوا فيه . ويعنى الرحالة بالمدارس والمارستانات عناية خاصة . وليس ذلك بغريب ، وهو العالم المحدّث الفقيه ، فيثني على أهل حلب وحماة لعنايتهم بالمدارس والمارستانات ويطنب في وصف مدارس دمشق وأخصها النورية . ثم يعنف أهل حمص لانهُ ليس عندهم إلاّ مدرسة واحدة وليس في بلدهم مارستان قط . وقال عن دمشق بهذه المناسبة « وبهذه المدينة نحو عشرين مدرسة وبها مارستانان قديم وحديث . والحديث أحفلهما وأكبرهما . يحمل اليه في اليوم نحو الخمسة عشر دينارا نحو تسعة جنيهات وله قوّمة بأيديهم الأزمة الطبية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون اليها في الادوية والاغذية حسبما يليق بكل انسان منهم . . . وللمجانين المتقلين أيضاً ضربٌ من العلاج ، وهم في سلاسل موثقون .... »

وابن جبير سني ويظهر هذا عند ذكره الشيعة والاسماعيلية . وهو عند ما يشير الى

الصليبيين يحذّر الرحالين من دخول ديارهم الاّ اذا اضطروا الى ذلك . لكن ذلك لا يمنعه من ملاحظة العلاقات التجارية الودية بين الفريقين فيشير الى تبادل القوافل التجارية بين الجماعتين في الوقت الذي يكون فيه القتال دائراً بينهما . ويحدثنا حديثاً طريفاً عن اقتسام المحصول في الأرض المشتركة بين أهل بانياس المسلمين ومن يقابلهم في قلعة هونين ، وعن غير ذلك

ولابن جبير ملاحظتان تدلان على ادراكه لمختلف الشؤون العامة. أما الواحدة فعنايته بالخانات الواقعة في مفارق الطرق وذكرها . وأما الثانية فجاءت اذ تحدث عن قلعة حلب فقال «ومن كمال خلالها المشترطة في حصانة القلاع ان الماء بها نابع ... فلا تخاف الظمأ أبد الدهر ، والطعام يصير فيها الدهر كلهُ ، وليس في شروط الحصانة أهم ولا آكد من هاتين الخليتين »

كانت حلب أول مدينة كبيرة نزلها ابن جبير في سوريا ، فأعجب بها وقال عنها الشيء الكثير فالبلد موضوعهُ ضخم جدًّا جميل التركيب بديع الحسن واسع الأسواق كبيرها ، وهذه متصلة الانتظام مستطيلة تخرج من سماط صنعة الى سماط صنعة أخرى الى ان تفرغ من جميع الصناعات المدنية ... وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة .... وكل سماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع الكرم . وكانت عكا وصور آخر ما وصف ابن جبير في رحلته فقال عن عكا «هي قاعدة مدن الافرنج بالشام ومحط الجواري المنشآت في البحر كالاعلام . . . . مجتمع السفن والرفاق ، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق . وسككها وشوارعها تغص بالزحام وتضيق فيها مواطىء الاقدام» . وأما صور فهي «أنظف من عكا سككاً وشوارع وأهلها ألين في الكفر طبائع وأجرى الى بر غرباء المسلمين . . . وشأن مينائها عجيب في حسن الوضع ولعكا مثلها في الوضع والصفة لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك » . ويختم ابن جبير حديثهُ عن سوريا بخبر اقلاعه من عكة « لكنهُ ينتظر استقامة الريح اثني عشر يوماً » لان الريح الشرقية لا تهب إلاّ في فصلي الربيع والخريف والسفر لا يكون إلاّ فيهما والتجار لا ينزلون عكا بالبضائع إلاّ في هذين الفصلين . ويختلف الهروي عن غيره بأنه انما يعنى بالزيارات . ولذلك فلما تحدث عنده وصفاً للحياة الاجتماعية أو الزراعية أو التجارية . فهو يحدثنا انه بلغه ان أحداً زار الخليل ، ورأى أجسام ابراهيم واسحق ويعقوب . وقد نقلنا قبلاً ان الهروي نفسهُ اعترف بأنه ينقل ما يسمع ، لا يشك ولا يحاسب

أما ابنُ بطوطة ، وهو رحالة القرن الثامن الهجري ، والرابع عشر الميلادي ، فقد دخل سوريا من الجنوب ، عكس بقية رحالينا الذين ذكرناهم ، وكان أول ما لقيهُ التفتيشُ الجمركي الدقيق الذي مرّ به بقطيا ، حيث يدفع التجار المكوس ، وفيها (أي قطيا) الدواوين والعمال والكتاب والشهود ومجباها في كل يوم الفُ دينار من الذهب ... وطريقها في ضمانَ

العرب قد وكلوا بحفظه . فاذا كان الليل مسحوا على الرمل لا يبقى به أثر ، ثم يأتي الاميرُ صباحاً فينظر الى الرمل فان وجد به أثراً طالبَ العرب باحضار مؤثره » . ويتابع ابن بطوطة سيره الى غزة فالقدس فالرملة فنابلس فعكة فصور ثم يجوز مدن الساحل الى طرابلس ثم يتنقل في شمال سوريا وبلاد الروم ويعود الى دمشق ومنها الى الحجاز بطريق الكرك وعمان.

ويعنى الرحالة بذكر الفضلاء والعلماء والمدرسين الذين يلقاهم والاشخاص الذين أجازوه بدمشق ويروي حكايات يسمعها من السكان ويزين أخباره بأشعار قيلت في المدن . وابن بطوطة ينقل عن ابن جبير وصف حلب ودمشق . ومن طرائف ابن بطوطة وصفهُ حلواء الحلوب بنابلس ودبس بعلبك . فنابلس « مدينة عظيمة كثيرةُ الاشجار مطردة الانهار من أكثر بلاد الشام زيتوناً . ومنها يحمل الزيت الى مصر ودمشق ، وبها تصنع حلواء الحلوب . وكيفية عملها ان يطبخ الحلوب ثم يعصر ويؤخذ ما يخرج منهُ من الرُبِّ » . أما بعلبك فهي « مدينة قديمة من أطيب مدن الشام ... وبها يصنع الدبس المنسوب اليها وهو نوع من الرب يصنعونهُ من العنب ولهم ترتة يضعونه فيها فيجمد وتكسر القلة ويبقى قطعة واحدة ، وتصنع منهُ الحلواء ، ويجعل فيها الفستق واللوز ويسمونها اللبن» ، ويحدثنا انهُ من عادة أهل دمشق أن يجهز الرجل ابنتهُ بالاواني النحاسية عند زفافها ، لانهم يتفاخرون بذلك

وقد كان ابن بطوطة في دمشق أيام الطاعون الاعظم في أواخر ربيع الثاني سنة تسع وأربعين وسبعمائة . وروى « ان ملك الامراء نائب السلطان أرغون شاه أمر منادياً ينادي بدمشق أن يصوم الناس ثلاثة ايام . ولا يطبخ احد بالسوق ما يؤكل نهاراً ... فصام الناس .. ثم اجتمع الامراء والشرفاء والقضاة والفقهاء وسائر الطبقات .... وخرجوا جميعاً وبايديهم المصاحف وخرج النصارى باعيادهم واليهود بتوراتهم ... وجميعهم باكون متضرعون ليخفف الله عنهم الطاعون ... وقد انتهى عدد الموتى عندهم الى الفين في اليوم الواحد »

ولعلَّ خير ما اختم به حديثي هو هذه القصة التي رواها ابن بطوطة عن اوقاف الاواني بدمشق قال « مررت يوماً ببعض ازقة دمشق فرأيت به ثلوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحفة من فخار الصيني ، وهم يسمونها الصحن ، فتكسرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم اجمع شقفها واحملها معك لصاحب اوقاف الاواني ، فجمعها وذهب الرجل معه اليه فأراه اياها فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن ... وكان هذا الوقف جبراً للقلوب . جزى الله خيراً من تسامت همته في الخير الى مثل ذلك »

(الكلية الشرقية — القدس) .